كلمات في الذكرى الثامنة لاستشهاد «قائد الانتصارين» والأمين على المقاومة وسلاحها عماد مغنية رمز أقلق العالم.. ورسم المعادلات وصنع توازن الرعب الذي يُقلق إسرائيل

محمود زيات | جريدة الديار

2014.02.13

منذ صغره، اكتشف أن قناعاته ومبادئه ستقوده الى عالم خاص، لا يشبه العالم الذي نعيش، ادرك باكرا انه قادر على تكريس كل حياته في سبيل قضية تستحق منه كل هذه التضحيات التي بقيت اسرارها طي الكتمان، حتى بعد استشهاده في الثاني عشر من شباط عام 2008، ولم يكشف عن كامل ما تحمله شخصيته الفذة، .. وحده أمين عام حزب اللّه استطاع ان يظهّر ما تيسر، شخصية رفيق دربه وصديق عمره وحافظ جعبته العسكرية، في كافة الحروب التي خاضتها المقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي.

انه عماد مغنية، المقاوم الشهيد.. الاسم الذي أرعب دوائر الاستخبارات العالمية التي تواطأت لمصلحة الأجهزة الأمنية الصهيونية، لكشف كامل شخصيته للنيل منه، ولم تصل الى نتيجة، سوى انه من مواليد العام 1962.. ونقطة ع السطر، وبقي عماد الاسم الأكثر استهدافا ومتابعة لدى دوائر العدو الاسرائيلي، الذي جند عملاء محليين وأجانب لتقفي أي أثر له، منذ أن ظهرت ملامح عن عمله فيتطوير قدرات المقاومة وجهوزيتها، لتكون جديرة بأن تصنع الانتصارات، وهو الذي لُقِّب، بعد استشهاده بـ «صانع الانتصارين»، في أيار العام 2000، يوم تحققت الهزيمة المدوية للاحتلال الذي تقهقرت قوته في الجنوب، وفي تموز وآب من عام 2006، يوم سجلت المقاومة أكبر انتصار على العدوان المدعوم والمبارك من شبكة من الدول والأجهزة الدولية والعربية وحتى اللبنانية.

نصر اللّه ظهّر الصورة السرية المشرقة للمقاوم المبدع

فالسيد نصر اللّه الذي نجح في إعطاء الحق لما تستحقه شخصية عماد مغنية الذي بقي على مدى مسيرته، يشكل لغزا من الألغاز غير المباحة في صفوف «حزب اللّه» وجمهوره، في مواجهة الحملات

الاعلامية التي سيقت لتشويه شخصية المقاوم والمبدع والخلاق في ابتداع اساليب جديدة للمقاومين، لم يكن يألفها العدو، منذ افتتاح عصر الاستشهاديين بعملية الشهيد احمد قصير ضد مقر الحاكمية العسكرية للاحتلال الاسرائيلي في منطقة جل البحر في صور، مرورا بمئات العمليات العسكرية المركبة التي جعلت الاحتلال يشعر وكأنه في واد من الدموع، وصولا الى دخول حزب اللّه في عالم صناعة التوازن المرعب مع الاحتلال، وفرض المعادلات العسكرية عليه وعلى داعميه من صناع القرارات الدولية المتوددة دوما للكيان الاسرائيلي ولمصالحه في المنطقة.

الفتى المقاوم.. المتحرر حتى من اسمه

قبل ان يكون من ضمن مجموعة من الشباب المثقف الذين قرأوا، وبتمعن الأفكار الماركسية ومدارسها الماوية والستالينية، كان مهتما أكثر بالفكر الفلسفي الذي بشّر بقيام حركات تحرر وثورات شعبية لمقاومة الاحتلال.. او الاستعمار وازالة الأنظمة الرأسمالية، والاسترشاد منها حيزا هاما من مسيرته، وهو بين أحضانها وفي قلبها. لم يكتف عماد بما قدمه للشعب الفلسطيني في سبعينات وثمانينات القرن الماضي، بل أعاد الصلة مع فلسطين من خلال العمل على نقل تجربة المقاومة في لبنان، الى الداخل الفلسطيني الذي كان وفيا على ما قدمه، فنفذت عمليات عسكرية عدة ضد الاحتلال حملت اسمه.

عماد مغنية، الشاب العشريني الخجول والهادئ، الذي يخفي مهارته القيادية عن قدامى أصدقائه، وان كانت واضحة في كثير من المواقف، يثابط جريدته اليومية ويمضي لتفقد الاصحاب والرفاق من أبناء جيله.. لتعقد جلسات نقاش عن الحرب التي قالوا أنها «أهلية»، يومها «كان المشروع الانعزالي الذي كانت تقوده الجبهة اللبنانية، يشكل خطرا على لبنان» برأي عماد، الذي عاش يوميات الحرب وبشاعة المجازر البشعة التي ارتكبت خلال فصول هذه الحرب، سيما عمليات «الخط ع الهوية»، التي كانت تجري بين شطري بيروت، وهو الذي عاش في الشياح، عند حافة الشريطين.

عماد المتحرر دوما من بطاقة الهوية، لم يظهر التسلسل العمري لصوره التي انتشرت، اي عمليات تغيير وجهه، ملامح وجهه في العام 1977، هي نفسها الملامح التي ظهرت في صورته اثر استشهاده، على عكس التقارير الاستخباراتية والاعلامية التي تحدثت عن عمليات تجميل خضع لها مغنية لتغيير ملامح وجهه، وهو كان أذكى من أن يلجأ الى اجراء عمليات تجميل، فمن لديه القدرة على الانقطاع الكامل عن أصدقائه الذين يتابعهم من بعيد، من دون ان يكونوا قادرين على متابعته، وينقطع عن المنطقة التي سكنها او عاش فيها، فهو قادر على التخفي واعتماد التمويه في يومياته، لنجاحه في أداء دور رسمه لنفسه باكرا.

عماد.. المؤمن بالفدائي.. بالمقاوم

حين دغدغته أفكار اليسار، مع دخول الحرب اللبنانية عامها الثاني، حسم خياره باكرا بانضمامه الى الحركة الأم للقضية الفلسطينية»فتح»، وهو في عمر السادسة عشر، كانت له مساهمة في التصدي للغزو الاسرائيلي لجنوب الليطاني في آذار العام 1978، بعد ان غلبت عليه دغدغة صورة الفدائي الفلسطيني التي كانت ما تزال نقية، الصورة التي شكلت عنده عقيدة، وحين يحدثك تكتشف انه

ملم ويُمسك بالحجج الفكرية والفلسفية، ويحاجج الماركسي بالماركسية والماوي بالماوية، لكن التحول الكبير الذي تمثل في العدوان الاسرائيلي للبنان عام 1982، ووصول الدبابات الاسرائيلية الى قلب العاصمة بيروت، جعله يرسم لنفسه صورة ودورا جديدين، يتناسبان مع التحدي الكبير، فأخذ موقعه الفاعل في مقاومة الاحتلال، ونظم اولى المجموعات العسكرية التي حملت طابعا اسلاميا، وتجهيزها لمقاومة الاحتلال، كل ذلك كان يجري قبل ان يسمع اللبنانيون بتسمية تدل على وجود تنظيم باسم «حزب اللّه»، فالعمليات العسكرية التي نفذتها المجموعات في مناطق مدروسة من الناحية الجغرافية، وخارطة انتشار قوات الاحتلال فيها واضحة.

من اطلاق الخلايا الأولى للمقاومة... الى فرض معادلات توازن الرعب

نجح عماد مغنية في التأسيس لخلايا مقاومة للاحتلال، وان كان ضمن امكانيات متواضعة، قياسا للامكانيات التي كانت تتمتع بها قوى واطراف سياسية لبنانية وفلسطينية، مارست الفعل المقاوم ضد الاحتلال، وهو خطط لسلسلة من الضربات المؤلمة للاحتلال، رسمت معالم جديدة في مسيرة المقاومة، وفي الضربة الأولى التي وجهها الى رأس الاحتلال في منطقة صور، لم يكن عماد يحتاج الى دراسة مطولة لطبيعة الارض، لأنه ابن المنطقة، وملم بكل تفاصيل الميدان، وهو كان قادرا على التحرك من دون لفت انتباه أحد، وهذه المرحلة امتدت من بداية العدوان في حزيران العام 1982 وحتى تحرير منطقة صور في نيسان العام 1985.. يومها اراد ان يوجه الضربات المؤلمة التي تهز الكيان الاسرائيلي، وهي الضربات التي ستجعله ينهزم وينحدر، وقد فتحت هذه الضربة آفاقا جديدة لتطوير عمل المقاومة، وتفاعلها مع الجنوبيين الذين خرج منهم في تلك المرحلة العشرات من الشباب.. للانخراط في مقاومة الاحتلال، وكبرت كرة الثلج.. فشف عماد طريقه مع مجموعة من الخبرات القيادية المتمرسة في الميدان العسكري، لبناء جسم عسكري لمقاومة الاحتلال، والعمل على ابتداع وابتكار أساليب قتالية تكتيكية واستراتيجية، تكفل الهزيمة للاحتلال، فراح العمل المقاوم يتراكم، وصولا الى التحرير الذي تحقق في أيار العام 2000، بعد ان تحولت مواقع ومراكز الاحتلال ودورياته الراجلة والالية ومواكب ضباط وجنود الاحتلال.. ومعهم المرتزقة في ما سمي «جيش لبنان الجنوبي».. الى اهداف يومية، حتى تحول النزيف الاسرائيلي في جنوب لبنان الى محرك للمجتمع الصهيوني الذي راح يرفع الاصوات للانسحاب من لبنان» البلد اللعين الذي يقتل أبناءنا».

تحرير الجنوب.. الحدث الأحب الى قلبه

واكب عماد مغنية الحدث المحبب الى قلبه.. تحرير الجنوب وهزيمة اسرائيل، كان هذا الحدث عزيزا على قلبه، ومنه انطلق ليكون حافزا على تعزيز قدرات المقاومة لاستكمال المهمة، وهكذا كان، تحولت المقاومة الى جيش يزرع الرعب في نفوس جنرالات الاحتلال، جيش يمتلك العدة الكاملة لصنع توازن مع الاحتلال، وهو توازن شكل قلقاً للاسرائيليين، وساهم عماد مع أمينين عامين للحزب، هما الشهيد السيد عباس الموسوي والسيد حسن نصر اللّه، في صنع مدرسة قتالية قادرة على مواجهة الاحتلال، من خلال عمليات تجهيز واعداد متواصلة، في العديد والعتاد، لصناعة قوة يهاب منها الاحتلال وغير الاحتلال، وقد تُرجمت نتائج هذه المدرسة القتالية خلال عدوان تموز عام 2006، وبالخوف الاسرائيلي السائد، من ان تغطي صواريخ حزب اللّه سماء تل أبيب في

الساعة الاولى من الحرب المقبلة»، وفق ما قال الاسرائيليون، وهم يشيرون الى الترسانة الصاروخية المتعاظمة التي يمتلكها «حزب اللّه».

نصر اللّه .. والحرب المفتوحة

أمين عام حزب اللّه السيد حسن نصر الل الذي تحدث بتأثر، عن الشهيد عماد مغنية ودوره في صناعة انتصارات المقاومة، وفي تعزيز قدرات المقاومة ودوره في عمليات تحرير الاسرى والشهداء من سجون العدو، في عملية «الوعد الصادق» ورده في بلدة عيتا الشعب الحدودية، سجل نصر اللّه لقائد مقاومته الدور الاساس في تطوير قدرة المقاومة وتنامي فاعليتها، فالقائد الاستثنائي في الزمن الاستثنائي الذي رسمته مسيرة المقاومة على مدى ستة وعشرين عاما، جعل من المقاومة.. القوة التي تخافها اسرائيل، واغتيال اسرائيل لأبرز الوجوه السرية للمقاومة، جعل السيد يعلنه فاتحة للحرب المفتوحة، وهو قال في وداع «ساخر المقاومة» هم قلقون ومرعوبون وخائفون ليس فقط في فلسطين، بل في كل انحاء العالم، دعوهم يقلقوا، فليذوقوا طعم الخوف والقلق والرعب، الذي طالما أذاقوه لشعوبنا واهلنا «.. وتوجه الى الاسرائيليين بالقول «ان كنتم تريدون هذا النوع من الحرب المفتوحة، فليسمع العالم كله.. فلتكن هذه الحرب المفتوحة.. لقد ترك لنا عماد مغنية الآلاف من المقاومين الاشداء.»

بعد ثماني سنوات على استشهاده، يبقى عماد مغنية، الاسم الأكثر حضورا في رفاقه المقاومين، الاسم الذي اقلق على مدى السنوات الماضية الكيات الاسرائيلي، مع عطاءات عماد مغنية، راحت اسرائيل تقتنع أكثر فأكثر، ان «حزب اللّه» عدو معقد للغاية، تنظيم متكامل يتسم بالصلابة ولا يجب الاستهانة بقدراته.. لقد أصبحنا نتلمس طريقنا في العتمة كالعميان قبالة «حزب اللّه»، لقد أظهر «حزب اللّه» ان لديه مهارات استخبارية محترفة جدا، وفي الوقت نفسه لديه قدرات تكنولوجية متطورة جدا.

في الثاني عشر من شباط قبل ثماني سنوات.. خسرت المقاومة احد أهم أعمدتها، لم تصمد نشوة «الانتصار الاسرائيلي» باغتيال عماد مغنية، بعد ان استفاقت على ما انجزه على مستوى اعداد مقاومة قادرة على السيطرة على الجليل الفلسطيني المحتل «اذا طلب منها ذلك»، واستطاع السيد نصر اللّه ان يقنع الاسرائيليين بأن «تموز سيكون نزهة» قياساً لما ينتظرهم، وجعلهم يتلمسون معالم المدرسة التي اعدها عماد قبل رحيله، فالمقاومة التي نسفت قواعد الصراع القائم بعد ان رسمت معادلات جديدة لهذا الصراع، وهي قواعد لم يجرؤ أحد على رسمها في تاريخ الصرراع العربي- الاسرائيلي.. الم يكن عماد مغنية القائد الفعلي لحرب الـ 33 يوما، والى جانبه جيش من الخبرات والكفاءات القتالية؟